أثر القرآن في العمران
أهمية تقوية الإيمان لفهم العلوم الصرفة أنموذجا
من خلال كليات رسائل النور لبديع الزمان

د. حسني خاليد(*)

١- تمهيد:

بينما يواصل العلم التقني وخصوصا في مجال العلوم الصرفة إحراز التقدم فيما يتعلق بنمط عيش جزء كبير من الإنسانية، تضعنا وتيرة التنمية المتسارعة للمجتمعات الحديثة أمام تحديات كبيرة؛ ففضلا عن افتقارنا للسعادة، نواجه صعوبات في تمثل الواقع بوضوح، كما نعدم الغايات، ونعجز عن مد الأجيال القادمة بما يعينها على استشراف مستقبل أفضل. وخير دليل على هذا الكلام، هو ما يتعرض له كوكبنا من تهديدات حقيقية، ومنها: الحروب، والتلوث، والفقر، والأوبئة، والتوسع في البناء، والإفراط في الاستهلاك، وبينما كان على العلوم أن تساعد الإنسان على استيعاب غاية خلقه وعلى الاهتداء إلى معرفة الطبيعة وفهمها، باءت بالفشل. فهل ارتُكب خطأ في فهم العلوم وإدراك أهدافها أو استعمالاتها؟

لتفادي انهيار الحضارة الإنسانية كاملا، نحتاج، فضلا عن تغيير نمط حياتنا، إلى تغيير طرائقنا في التفكير، ذلك أن ضعف الإيمان الحافز إلى الخير وغياب منهج ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِكَ الَذِي خَلَقَ﴾ (العلق: ١)، وتضخم أمر العلوم الصرفة والتكنولوجيا في أذهان طلبة العلم بفعل مناهج الدراسة في المدارس العلمانية، التي تجعله مصدر السعادة والرفاه، ولا تلتفت إلى مصدر السعادة النابع من الوحي قرآنا وسنة، كل ذلك أدى إلى تراكم الران وسماكة الحجب على الأفهام واستغلاق المدارك.

(*) أستاذ بجامعة محمد الأول- وجدة / المغرب. hassanifpn@gmail.com

وإذا كان من السهل الإقناع بأهمية تقوية الإيمان في فهم العلوم الشرعية، فإن الحديث عن ذلك في العلوم الصرفة يثير استغراب الكثيرين، مع أن الحاجة إليه فيها أمس، والبواعث إليها أدعى، وما ذلك إلا لأن الانبهار بما حققه باحثو الغرب فيها يعمي البصائر والبصر.

أملا في بلوغ هذا المرام وتحقيق هذا المقصود، تنتصب كليات رسائل النور، زيادة على تقديمها رسالة العليم العلام إلى كل الأنام (التفسير العصري للقرآن الكريم) منطلقة من القرآن إلى العمران، لتضع أسس وقواعد البحث العلمي، وتوجه الأنظار إلى (أستاذية القرآن) للإنسانية قاطبة، وترسي منهجا لتلقي وفهم العلوم يزن بميزان الإيمان ويجعل الاجتهاد في فهم العلوم عبادة فكرية. انطلاقا من مسلمة أن الإيمان للإنسان نور يضيئ له جنبات الكائنات وينير له أسرار العلم.

تسعى هذه الورقة إلى الكشف عن بعض ما تقدمه رسائل النور نظريا في هذا الباب مشفوعا بتطبيق عملي من سيرة صاحبها في هذا المجال تحديدا.

٢- جسور مفهومية :

أ- جسر القرآن:

يقول الله جل وعلا: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحاً مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلا الْأِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُوراً نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا﴾ (الشورى: ٥٢)

ويقول جل من قائل: ﴿قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ يَهْدِي بِهِ اللهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلامِ وَيُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ (المائدة:١٥- ١٦).

القرآن روح من أمر الله، وخاصية الروح أنها تمنح كل خصائص الحياة للكيان، فهو روح حين تحل في الإنسان الفرد تمنحه الحياة بعد الموت، فيصير بها خلقا أخر. وهو روح حين تحل في جمع من الناس، يصيرون جسدا واحدا، وأمة واحدة. وما صارت هذه الأمة: أمة الإسلام، خير أمة أخرجت للناس، إلا بحلول روح القرآن فيها. وما صنعت هذه الأمة ما صنعته في التاريخ، إلا حين حلت في أفرادها روح القرآن، وحلت في مجموعها روح القرآن.

والقرآن نور ﴿وكذلك جَعَلْنَاهُ نُوراً نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا﴾ (الشورى: ٥٢). ﴿قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللهِ نُورٌ﴾ (المائدة:١٥) ﴿فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ﴾ (الأعراف:١٥٧).

إنه نور من نور الله، و﴿الله نور السماوات والأرض﴾ (النور: ٣٥) ، ولا نور لأحد إلا من نوره ﴿وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللهُ لَهُ نُوراً فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ﴾ (النور: ٤٠) وشأن النور أن يعطي الأمان، وأن يوضح الرؤية، وأن يبرز الأشياء على حقيقتها. وبواسطة النور، نرى الأشياء بأحجامها الطبيعية، وألوانها الطبيعية. مع النور يكون الأمن والأمان، ومع الظلمة تكون الرهبة والخوف. مع النور يكون الوضوح، ومع الظلمة يكون الغموض. مع النور تُعرَف الحقائق، ومع الظلمة تُطمس الحقائق[١].

هذا القرآن حقيقةً وطبيعةً لأنه كلام رب العالمين. ولقد عرف بديع الزمان القرآن تعريفا ينأى عن الحدود المنطقية، وينحو منحى السبيل التذويقية، وسمى تعريفه (لمعة من تعريف القرآن)[٢] قال رحمه الله: (فإن قلت : القرآن ما هو؟ قيل لك: "هو الترجمة الأزلية لهذه الكائنات والترجمان الأبدي لألسنتها التاليات للآيات التكوينية ومفسر كتاب العالم ، وكذا هو كشاف لمخفيات كنوز الأسماء المستترة في صحائف السماوات والأرض وكذا هو الغيب في عالم الشهادة.... وكذا هو للإنسان: كما أنه كتاب شريعة كذلك كتاب حكمة .... وكما أنه كتاب ذكر كذلك كتاب فكر)[٣]

فهذا هو جسر الإنسان إلى عالم الأكوان لأنه الترجمة الأزلية لهذه الكائنات.

ب - جسر العمران:

العمران: هو مصدر من عمر الأرض، يعمرها عمارة وعمرانا، تطلق على الاسم وتطلق على المصدر، ونحن نأخذه بالمعنى المصدري، وهو قابل لأن يؤخذ بالمعنى الاسمي. حين نأخذه بالمعنى الاسمي يصدق على ما تحقق نتيجة المعنى المصدري. فكل الإنشاءات المعنوية والحسية التي بها يقوم الإنسان، بها يعبد الله تعالى فيقوم بوظيفة الخلافة كل ذلك هو العمران.

---

(١) أنظر رسالتي: القرآن الكريم طبيعته ووظيفته، والقرآن الكريم روح الأمة الإسلامية، للدكتور الشاهد البوشيخي، منشورات المحجة ٢٠٠١.

(٢) إشارات الإعجاز، ص: ٢٢

(٣) إشارات الإعجاز، ص: ٢٢، المكتوبات ص: ٢٦٧

وحين تنظر إليه مصدرا فهو حينها أبعد في المعنى من العمارة لأن الألف والنون في العربية تفيد المبالغة، وهو عمارة جيدة كبيرة، هي من مصدر عمر الأرض يعمرها، وحين توجد عمارة جيدة ممتازة، إما واسعة، أو غير ذلك تكون عمرانا. لكنها لا تكون كذلك إلا على أساس القرآن.

لقد استخلف الله عز وجل الإنسان في الأرض، قال جل من قائل : ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ (البقرة:٣٠) فقبل أن يخلق آدم، حددت الوظيفة التي له في الأرض (خليفة)، وحدد المكان الذي سيمارس فيه هذه الوظيفة (الأرض)، فالإنسان مستخلف في الأرض ، وطبيعة الخلافة تقتضي أن هناك مستخلِفا له، وأن هناك عهدا وميثاقا لهذه الخلافة، وأن هناك ما تتجلى فيه هذه الخلافة. وتلكم الخلافة عمران.

استنادا إلى هذا التصور "جعل بديع الزمان الكون ركنا مهما من أركان خطابه التجديدي فخاطب الإنسان بما هو كائن كوني يحمل أمانة كونية يسير بها إلى الله، وكل الكائنات خلفه تابعة له.[١]

معنى العمران إذن هو الأمانة، هو الإمامة الكونية من حيث إن الإنسان هو: المستخلف على عمران الكون ، وبهذه الوظيفة تكون له الأمانة في تسخير الكون واستيعابه لخدمته . قال الله سبحانه وتعالى ﴿أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ (لقمان: ٢٠) ﴿وسخر لكم ما في السماوات وما في الأرض جميعا منه﴾ (الجاثية : ١٢) ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً﴾ (البقرة: ٢٩) (خلق لكم)، (سخر لكم)، (جعل لكم)، الكل في هذا الكون أعد للإنسان، حتى الشمس والقمر ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَآتَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللهِ لا تُحْصُوهَا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ (إبراهيم:٣٣- ٣٤).

صورة الإنسان هذه حقيقة ووظيفة هي التي جعلت النورسي رحمه الله تعالى يعبر عن الإنسان بأنه فهرسة لكتاب العالم.[٢] وذلك جسر العمران لعالم الأكوان.

---

(١) مفاتح النور، فريد الأنصاري، ص: ٤٨ بتصرف.

(٢) إشارات الإعجاز ص: ٢٦.

ج - جسر الإيمان:

تحقيق العمران رهين بمدى إيمان الإنسان، فلا يتحقق العمران حقا إلا إذا كان هذا الإنسان مهيأ إيمانيا لعمارة الأرض، وإلا كان إنتاجه خرابا ودمارا، وهي الحال التي بها يمكن وسم إنسان العصر بكل يسر.

فما يعرفه العصر من ضعف إيماني وضلالة مستوردة من ثقافة المدنية الغربية التي أبرز سماتها هيمنة منطق تخريب الكون بدل منطق بنائه، وسيادة علوم التدمير (العسكرية) بدل علوم التدبير (المدنية)، كل هذا دفع النورسي إلى إعادة ربط الإنسان بخالقه بتوضيح الحقائق الإيمانية ، لأن الرقي والتقدم مرهونان بالإيمان. وهكذا عرف النورسي الإيمان قائلا: «الإيمان الذي هو الانتساب إلى الصانع سبحانه يقوم بإظهار جميع آثار الصنعة الكامنة في الإنسان. فتتعين بذلك قيمة الإنسان على مدى بروز تلك الصنعة الربانية، ولمعان تلك المرآة الصمدانية . فيتحول هذا الإنسان- الذي لا أهمية له- إلى مرتبة أسمى المخلوقات قاطبة، حيث يصبح أهلا للخطاب الإلهي، وينال شرفا يؤهله للضيافة الربانية في الجنة.»[١]، فحين يسمو الإنسان ويزكو، يكون آنذاك مشيدا لا مدمرا وبانيا لا هادما. ويقول أيضا: « اعلم أن الإيمان إكسير يقلِبُ فحمَ المادة الفانية ألماساً مصنّعاً مرصّعاً باقياً بمعناه بنسبته إلى الصّانع الباقي.. والإنسان بالكفر يعكس فينتكس، إذ كما أنه يوجد في مصنوعات البشر ما تكون قيمةُ مادته خمسة دراهم، وقيمةُ صنعته ألوف الدنانير، وتتزايد القيمة بكون صانعه شخصاً مشهوراً خارقاً عتيقاً.كذلك [الإنسان][٢] في مصنوعات الصانع القديم »[٣]، فكلما شرف الإنسان بانتسابه إلى الصنع العليم شرفت صنعته وكانت عمرانا حقيقيا. ومن ثم «فالإيمان نسبةٌ يُنسِبُ الإنسان إلى مالكه، وجهةُ النسبة إنما تنظر إلى الصّنعة، فيكون مدار النظر حينئذٍ إلى المصنوعية والصنعة. فبالإيمان تزيد قيمةُ الإنسان إلى أن تصير الجنة ثمنَه، وتكون الخلافة رتبَته، ويطيق على حمل الأمانة (العمران بميزان القرآن).. وأما الكفر فهو قاطع النسبةِ، وقاطع الوصلة.. فإذا انقطعت النسبة استتر الصنعُ، وانتكست الصنعةُ واختفى التجلي، وظهرت المادةُ، وانقلبت المرآة وسقطت القيمة إلى درك يتمنّى الكافرُ العدمَ، أو ينقلب تراباً".[٤]

---

(١) الكلمات ص: ٣٤٩

(٢) زيادة من عندنا للتوضيح وقد وردت في بقية النص.

(٣) المثنوي العربي النوري ص: ٤٤١

(٤) المصدر نفسه، ص: ٤٤١

الانتساب الإيماني إذن جسر الإنسان لاستمداد القوة الخارقة من الله تعالى للتأهل لعمران الكون، وتحقيق الأخوة الوجودية وبلوغ مقام العبدية. فبالإيمان بالانتساب إلى الله يصبح بذلك الإنسان مكلفا، يرتفع بالإنسان إلى مقام الكائن المكلف، وتبعا لذلك يضمن لنفسه مقام الشرف والرفعة. فيصبح ذا قيمة عالية تخول له أهلية خلافة الله في أرضه وتحمل أمانته التي كلفه بها وبالتالي الفوز بالجنة.

د- جسر العلوم الصرفة.

يستعمل مصطلح العلوم الصرفة للدلالة على مفاهيم تختلف من ثقافة لأخرى ومن عصر لعصر، وتحاقله[١] في المعنى مصطلحات أخرى تحيل على علوم بعينها ومناهج مخصوصة وتصورات معينة، منها: العلوم الحقة ، العلوم الدقيقة، العلوم، ...

ولتوضيح المقصود بالعلوم الصرفة أو الحقة أو الدقيقة نحتاج لتوضيح كل من التصورين الغربي والإسلامي لتصنيف العلوم. وذلك كما يلي:

التصنيف الغربي للعلوم: أشهر تصنيف للعلوم في الغرب نشأ وتطور وانتشر في حضن الفلسفة الوضعية هو تصنيف كونت الذي اعتمد الترتيب الخطي لمختلف المدارك العلمية، فوضع على رأس القائمة (الرياضيات) والمنطق، لأنها في نظره مفتاح سر كل العلوم ووسيلتها الوحيدة ، يليها علم الفلك ثم الفيزياء ثم الكيمياء وهذه العلوم الثلاثة تسمى علوم الأجساد الجامدة، ثم يأتي بعدها علوم الأجساد الحية وهي الفيزيولوجيا والفيزياء الاجتماعية (علم الاقتصاد وعلم الاجتماع). وهذا الترتيب تفاضلي على أساس الموضوعية أو مستوى العلمية. وهذا التصنيف يقصي المعارف الدينية والفلسفية من دائرة المدارك العلمية.[٢]

وقد تلت هذا التصنيف تصنيفات أخرى استندت إلى الفكر البنائي فميزت بين علوم المادة وعلوم الحياة وعلوم الحركة وعلوم الهندسة وهذا التقسيم يعطي أيضا الأولوية لعلوم المادة ويعتبرها أرقى العلوم. وكلا التصنيفين محكوم بمنظومة فكرية مادية وسياق تاريخي صارع العلم في الكنيسة فكان من ثمرات هذا الصراع نزع العلمية عن الفكر الديني.

---

(١) أي تشترك معها في الحقل الدلالي نفسه.

(٢) صلى الله عليه وسلم desca .صلى الله عليه وسلم tes.le discouصلى الله عليه وسلم de la méthode ; ed classique ga صلى الله عليه وسلم nieصلى الله عليه وسلم 2T, 1949

التصنيف الإسلامي للعلوم: يقسم ابن خلدون العلوم إلى صنفين: صنف نقلي أي مستند إلى خبر وضعه الشارع. وصنف مرتبط بطبيعة الإنسان يهتدي إليه بفكره ومداركه البشرية انطلاقا من تعامله وتفاعله. الصنف الأول تتفرع عنه علوم عديدة منها علوم القرآن والحديث والفقه والفرائض والكلام واللغة.... والصنف الثاني تتفرع عنه علوم الفلسفة والحكمة - بتعبير ابن خلدون - ومنه علوم العدد والهندسة والفلك والمنطق والطبيعيات والكيمياء...[١]

وهذا التصنيف يعطي الأولوية للعلوم المرتبطة بالوحي، لأن الوحي يحمل المعرفة المطلقة والحقيقة. وحق له أن يسمى علوما دقيقة وحقة وصرفة لأن مصدره علام الغيوب.

وينتصب في هذا المجال إطلاق النورسي رحمه الله متميزا حيث يستدعي تعابير دقيقة منها: العلوم الآلية[٢] والعلوم العالية[٣] والعلوم المادية[٤] والعلم التجريبي[٥].. وذلك للتعبير عن العلوم التي مصدرها الحس والتجريب وتنصب على المادة ويستعمل مصطلحات العلوم الإيمانية[٦] والعلوم الحقيقية[٧] للتعبير عن العلوم التي مصدرها الله تعالى من خلال كتاب الوحي قرآنا وسنة.

وحاصل الإطلاق المصطلحي عند بديع الزمان رحمه الله لفظان متميزان دالان هما: العلوم الكونية والعلوم الإيمانية.

١- مقدمات نظرية:

أ – المقدمة الأولى في حقيقة العلاقة بين القرآن والعمران:

قلنا قبل إنه لا عمران إلا على أساس القرآن. لكن قد يسأل سائل: هذا الذي أنتجه

---

(١) ابن خلدون، مقدمة ابن خلدون، دار القلم بيروت.

(٢) صقيل الإسلام ص ٦٧

(٣) نفسه ص ٦٨

(٤) نفسه ص: ٣٣ وص: ٤٨٧

(٥) الكلمات ص:٤٠١-٤٠٢

(٦) المكتوبات ص: ٤٦٣ والمثنوي العربي ص:٢١٦ والملاحق ص: (٦٦-٧٧ -٢٠٨-٢٦٢-٢٨٨-٣٢٥-٣٦١-٣٩٦-٤١٩)

(٧) الكلمات ص: ٣٥٥

البشر من إنشاءات مادية ومعنوية. أليس عمرانا؟ وكل ما يقوم به أناس لا ينطلقون من القرآن؟ الجوابأنه: يجوز الزعم في نظري أنه ليس بعمران، لأن العمران ضد الخراب. وأول ما قاله الراغب الأصفهاني في المفردات: العمارة نقيض الخراب، فكل ما فيه تدمير للبشرية بشكل من الأشكال سواء على مستوى الأفكار أو على مستوى الإنشاءات المادية فلا يمكن أن يسمى عمرانا، ثم كذلك إذا كان في الظاهر يفيد الإنسان، لكن لم يقصد به ذلك، وإنما جاء عرضا لمقصد آخر يعتبر عمرانا كفعل الكافر إذا لم يكن له إيمان ﴿وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا﴾ (الإسراء: ١٩) قد يريد الآخرة ويسعى لها سعيها لكن ليس بمؤمن فلا فائدة ﴿مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لَا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَى شَيْءٍ ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ﴾ (إبراهيم: ١٨) فإذن ارتباط العمران بالقرآن، ارتباط السبب بالمسبب. لا يمكن أن يكون عمران في الأرض إلا إذا وجد القرآن، لأن الذي ينشئ العمران هو القرآن، إذ العمران مرتبط بالوظيفة الأصلية لآدم وبنيه التي هي الخلافة والتي حددت في شيء اسمه "عبادة الله وحده لا شريك له" التي تقررها الآية ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ (الذاريات: ٥٦) إذن لكي ننتج العمران بالمعنى الاسمي، لكي نقوم بالعمران بالمعنى المصدري، نحتاج إلى القرآن، أي لا بد من القرآن. فالذين عمروا الأرض حقيقة، هم بهذا المعنى، وإلا فبمعنى الإقامة والوجود في الأرض ﴿عَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِما عَمَروهَا﴾ (الروم: ٩) ذلك معنى آخر هناك معنيان عند صاحب المقاييس ابن فارس، جعل المادة تدور على أصلين: أصل له ارتباط بالصلاح نقيض الخراب، نقيض الفساد، وهذا هو المعنى المقصود، وهذا هو الوارد في الآية ﴿وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ (هود: ٦١).

وهناك معنى مرتبط بهذا هو معنى البقاء، في الزمان والاستمرار والوجود بشكل من الأشكال وهو ليس عمرانا فإذن لا بد من القرآن لإنشاء العمران، نحن في زمننا هذا قد ضعف عمراننا إن لم نقل قد زال فإسهام المسلمين اليوم في عمران الأرض ضعيف جدا، وحاجة البشرية جملة إلى من يعمر الأرض بالغة الأهمية. لذلك كان إلحاح النورسي رحمه الله على تفعيل وتحفيز وتذويق الحقائق القرآنية للإنسان حتى ينطلق من القرآن إلى العمران.

ب - المقدمة الثانية في حقيقة العلاقة بين العلم والدين.

تباينت مواقف الغير من هذه العلاقة على فرق قلدها مسلمو العصر للأسف، فقد ادعت فرقة أولى منهم أن بين العلم والدين تناقضًا صريحا، وبالغت في التمسك بهذا التناقض، ولم تَرَ مخرجا منه لا بترجيح ولا بتفريق، بل جعلت العلم حربا على الدين وجعلت الدين حربا على العلم، ورأت أنه لا مخرج من هذه الحرب إلا بانتصار العلم وانهزام الدين؛ فانتصر العلم لديها وانهزم الدين، وادعت فرقة ثانية من غيرنا أن بين العلم والدين تمايزا، لا تناقضا؛ فليس أحدهما يَثبُت حيث ينتفي الثاني، فيكون بينهما تناقض كما عند الفرقة الأولى، وإنما يختص بما لا يختص به هذا الثاني؛ فما يشتغل به العلم لا يشتغل به الدين، وما يشتغل به الدين لا يشتغل به العلم؛ فالعلم عند أفراد هذه الفرقة الثانية موضوعه المعرفة والحقيقة، بينما الدين موضوعه الشعور والحدس؛ وضوابط المعرفة والحقيقة لا تنطبق على مجال الشعور والحدس، وقواعد الشعور والحدس لا تنطبق على مجال المعرفة والحقيقة. وعلى هذا، فلا النقد العلمي بمقدوره أن ينال من الدين، ولا السلطة الدينية بمقدورها أن تنال من العلم.

وادَّعت فرقة ثالثة من غيرنا أن بين العلم والدين تباينا، لا تناقضا ولا تمايزا؛ فليس أحدهما يَثبت حيث ينتفي الثاني، فيكونَ بينهما تناقض كما عند الفرقة الأولى، ولا أنه يختص بما لا يختص به، فيكون بينهما تمايز كما عند الفرقة الثانية، وإنما الواحد منهما يتناول ما يتناوله الآخر، لكن بغير الوجه الذي يتناوله به، فمُتعلَّقهما واحد ووجه تعلُّقهما مختلف؛ فالاعتقاد في العلم غير الاعتقاد في الدين والمعرفة في هذا غير المعرفة في ذاك والفعل هنا غير الفعل هناك، فيكون العلم والدين بمنزلة شكلَين متباينين من أشكال الحياة، بل بمنزلة عالمين اثنين لا مجال للمقارنة بينهما ولا لمقايسة أحدهما بالآخر؛ ومادام العلم والدين بهذا التباين البالغ، فلا يُعقل أن نصرف الدين بحجة أنه معرفة لا تقوى على النهوض بموجبات العلم، كما لا يُعقل أن نسعى إلى تقويته بأن نخلع عليه حلية العلم.[1]

ويأتي هذا الاستغلاق من تَصوُّرين منقولين عن غيرنا كلاهما مردود، أحدهما "اختزال العلم في علوم الطبيعة"؛ والثاني "اختزال الدين في أحوال العبادات". وقد بينا

(١) طه عبد الرحمن، مقال، بعنوان: كيف نفكر في الصلة بين العلم والدين؟، بمجلة حراء، العدد ٨ يوليو شتنبر ٢٠٠٧

أن مفهوم الإيمان عند الإمام النورسي يستغرق كل أوجه نشاط الإنسان وأن العلم الحق علم الإيمان فلا مسوغ بعد لذلكم الفهم العقيم.

٢- أسس وقواعد التحصيل العلمي ومنهج فهم العلوم عند الأستاذ النورسي:

إن الباحث عن الأسس المنهجية للتحصيل العلمي في المشروع النوري في رسائل النور، يدرك متانة الأصول المنهجية وتكامل المعارف الإنسانية، واعتماد المعالجة الإيمانية، بشكل ينم عن قدرة بديع الزمان سعيد النورسي على استحضار العلوم التي حصلها في مرحلة طلبه وتوظيفها في كتابة موسوعة شاملة رغم الظروف الصعبة التي لم تسمح له بالرجوع إلى الكتب والمصادر قصد التحقيق، ولكن رغم هذا فقد استطاع أن يؤلف مشروعا فكريا متكاملا قادرا على المواجهة والتحدي، والبناء بشهادة علماء عصره، ومن جاء بعده، ويرجع هذا النجاح إلى التوفيق الإلهي الذي أحاط به ثم القدرات العلمية التي منحها الله إياه، يقول رحمه الله " والدليل على أن الرسائل ليست من بنات أفكاره أنه هناك من الرسائل ما قد كتب في ست ساعات، وأخرى في ساعتين وبعضها في ساعة واحدة وأخرى في عشر دقائق. فأنا أقسم أنه لو كانت لي حدة ذكاء سعيد القديم، وقوة حافظته، لما تمكنت أن أكتب في عشر ساعات، ما كتب آنذاك في عشر دقائق، ولا يمكنني أن أكتب في يومين ما كتب في ساعة، فنحن إذن مع أننا مفلسون ليس لنا شيء إلا أننا أصبحنا خداما ودلالين في معرض أغلى المجوهرات".[1]

ويمكن استخلاص بعض هذه الأسس في ما يلي:

أ- الأساس الأول: أستاذية القرآن للإنسان.

ب- الأساس الثاني: فهم العلوم بميزان الإيمان

ج- الأساس الثالث: الإيمان ينير الكائنات

د- الأساس الرابع: رسائل النور مصابيح القرآن في عالم الأكوان.

وبيان ذلك كما يلي:

فقد اتخذ من القرآن الكريم القاعدة الصلبة لتوجيه العلوم والمعارف نحو خدمة الإنسان المعاصر ومعالجة مشاكله؛ واعتمد أسماء الله الحسنى في قراءة أسرار الكون وتوظيف ذلك في معالجة القضايا الإيمانية؛ يقول رحمه الله: إن هذا النظام والميزان

(١) أنظر الملاحق في فقه دعوة النور ص: ١٨١-١٨٢.

المشهودين عنوانان لقبضتي الرحمن وبابان من الكتاب المبين.. ومن كتاب الكائنات. والقرآن ترجمانُ الكتابين وفهرستة البابين وفذلكةُ القَبْضَتين.[١]

ويقول أيضا: إذا بخاطر رحماني من الله سبحانه وتعالى يخطر على قلبي ويهتف بي:

- إن بداية هذه الطرق جميعها.. ومنبع هذه الجداول كلها.. وشمس هذه الكواكب السيارة.. إنما هو (القرآن الكريم) فتوحيد القبلة الحقيقي إذن لا يكون إلا في القرآن الكريم.. فالقرآن هو أسمى مرشد.. وأقدس أستاذ على الإطلاق.. ومنذ ذلك اليوم أقبلت على القرآن واعتصمت به واستمددت منه.. فاستعدادي الناقص قاصر من أن يرتشف حق الارتشاف فيض ذلك المرشد الحقيقي الذي هو كالنبع السلسبيل الباعث على الحياة، ولكن بفضل ذلك الفيض نفسه يمكننا أن نبين ذلك الفيض، وذلك السلسبيل لأهل القلوب وأصحاب الأحوال، كلٌ حسب درجته. فـ(الكلمات) والأنوار المستقاة من القرآن الكريم (أي رسائل النور) إذن ليست مسائل علمية عقلية وحدها بل أيضا مسائل قلبية، وروحية، وأحوال إيمانية.. فهي بمثابة علوم إلهية نفيسة ومعارف ربانية سامية.[٢] ويقول:

أما سؤالك الثاني:

إذا نظرت إلى المرآة من حيث إنها زجاجة، فأنت ترى مادتها الزجاجية، وتكون الصورة المتمثلة فيها شيئا ثانويا، بينما إن كان القصد من النظر إلى المرآة رؤية الصورة المتمثلة فيها، فالصورة تتوضح أمامك حتى تدفعك إلى القول ﴿فَتَبَارَكَ اللهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾ (المؤمنون: ١٤) بينما يبقى زجاج المرآة أمراً ثانوياً.

فالنظرة الأولى تمثل "المعنى الاسمي" أي: زجاجة المرآة معنى مقصود، وصورة الشخص المتمثلة فيها "معنى حرفي" غير مقصود.

أما النظرة الثانية فصورة الشخص هي المقصودة، فهي إذن معنى "اسمي" أما الزجاج فمعنى حرفي. وهكذا ورد في كتب النحو تعريف الاسم انه: دلّ على معنى في نفسه. أما الحرف فهو الذي: دلّ على معنى في غيره.

---

(١) المثنوي العربي النوري - ص: ٢٦٠

(٢) المكتوبات- المسألة الثالثة من المكتوب الثامن والعشرين ص: ٤٥٩

فالنظرة القرآنية إلى الموجودات تجعل الموجودات جميعها حروفاً، أي إنها تعبّر عن معنى في غيرها، بمعنى أنها تعبّر عن تجليات الأسماء الحسنى والصفات الجليلة للخالق العظيم المتجلية على الموجودات. أما نظرة الفلسفة - المادية - الميتة فهي تنظر على الأغلب بالنظر الاسمي إلى الموجودات، فتزل قدمها إلى مستنقع الطبيعة.[١]

وهكذا فأول سبيل لفهم العلوم – كما يرى بديع الزمان رحمه الله تعالى- هو الانطلاق من القرآن الكريم، لأنه ترجمان حقائق عالم الغيب وعالم الكائنات. وضابط ذلك هو الانتساب الإيماني، أي فهم العلوم بميزان الإيمان- الأساس الثاني- فهو الضمان لفهم أسرار الكون وقوانينه ونواميسه، من جهة وهو الممكن من قراءة الكائنات القراءة الحقة، من حيث إن الإيمان ينير الكائنات من جهة أخرى. يقول رحمه الله: "إذا استندت المخلوقات غير المحدودة والأشياء غير المعدودة إلى الواحد الأحد، فكل شيء عندئذ يكون بذلك الارتباط قد نال مظهرا من ذلك الانتساب، ويكون موضع تجل من ذلك النور الأزلي، فتمد علاقات ارتباطه بقوانين حكمته وبدساتير علمه، وبنواميس قدرته، وعندها يرى كل شيء بحول الله وقوته، ويحظى بتجل رباني، يكون بمثابة بصره الناظر إلى كل شيء ووجهه المتوجه إلى كل شيء وكلامه النافذ في كل شيء".[٢]

ذلك أن هذه الأسس الثلاثة الأولى ترقى بالعبد إلى مرتبة الولاية فيغدو يرى بنور الله ويسمع بسمعه ويبطش ويمشي بسند الله تعالى ومدده كما يدل على ذلك الحديث الصحيح: (مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالحَرْبِ. وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِيْ بِشَيءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُهُ عَلَيْهِ. ولا يَزَالُ عَبْدِيْ يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ، فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِيْ يَسْمَعُ بِهِ، وَبَصَرَهُ الَّذِيْ يُبْصِرُ بِهِ، وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا، وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِيْ بِهَا. وَلَئِنْ سَأَلَنِيْ لأُعطِيَنَّهُ، وَلَئِنْ اسْتَعَاذَنِيْ لأُعِيْذَنَّهُ).[٣]

وتطبيقا لهذا فقد كانت رسائل النور وفقا لهذه الأسس مصابيح للقرآن في عالم الأكوان تنير للسالكين دروبه، وتذوق الراغبين شهده وحقائقه.

---

(١) الملاحق - ملحق بارلا، ص ٩٠

(٢) المكتوبات ص: ٣٣٣

(٣) رواه البخاري

٥- بديع الزمان أنموذج عملي لسبر علوم الأكوان عبر معارج الإيمان.

حياة بديع الزمان رحمه الله تعالى استدلال عملي على أن حاجة الإنسان في فهم العلوم، كونية كانت أم إيمانية، هي إلى تقوية الإيمان لا إلى المعاهد والجامعات ومن اللمعات التي يستضاء بها في حياته والتي تتصل بهذا الموضوع:

١- تحصيله العلوم بشكل خارق وبمنهج عصامي دون حاجة إلى معاهد أو جامعات.

٢- تفوقه في العلوم الكونية علاوة على العلوم الإيمانية إلى درجة بذ فيها أهل الاختصاص.

٣- تطبيقه لهذه العلوم في فهم آيات الإعجاز العلمي للقرآن الكريم.

ولعل العناية الإلهية شاءت أن تغرس في النورسي بصيرة نفاذة وقدرة عجيبة في دمج العلوم العقلية الحديثة والعلوم النقلية الشرعية، فكأنه ينهل من جذور المعرفة لا من فروعها. إذ يقدم حلولاً وإرشادات في اعقد الأمور الحياتية والإيمانية والغيبية في بلاغة رائقة وأسلوب رشيق تأنس به العقول وتطمئن به القلوب، فتجد فيه ضالتها ومنفذ خلاصها من دون أن يكدّر شيئاً على صفو الأفهام أو يغرقها في الفروع دون الأصول وما ذلك إلا لاستقامة المنهج عنده فكثير ما كان ينطلق من تأمل آية قرآنية ليصل إلى كشوفات علمية ..

ولكي يكون أسلوبه جامعاً لجماح العقول وشرود القلوب فقد أودع الله فيه قدرة على الاستشهاد ب"الأمثلة" المقنعة القريبة من العقل والقلب معاً، ومنحه قوة المنطق الفطري والبرهان العقلي والأدلة المقنعة وإقامة الحجج القوية في معالجته الأمور الغيبية الإيمانية، لذا يجد قارئ الرسائل متعة جديدة كلما أعاد قراءتها، بما ينكشف أمامه من آفاق إيمانية احتجبت عنه في مطالعته الأولى.

خاتمة:

الإيمان والقرآن جسور الإنسان لفهم كنوز وعلوم عالم الأكوان على الوجه الذي يقيم العمران ويحقق وظيفة الإنسان، ويجعل العلوم حقة وصرفة ويحميها من الزيغ والضلال والتيهان، ويؤهلها حقا لطلب الحق وإقامة العمران، بميزان القرآن لا وفقا للهوى والشيطان.

القرآن هو جسر الإنسان إلى عالم الأكوان لأنه الترجمة الأزلية للكائنات.وهو كشاف لمخفيات كنوز الأسماء المستترة في صحائف السماوات والأرض وهو الغيب في عالم الشهادة، وحيث إن الإنسان هو: المستخلف على عمران الكون، وبهذه الوظيفة تكون له الأمانة في تسخير الكون واستيعابه لخدمته، فإن صورة الإنسان هذه حقيقة ووظيفة هي التي جعلت النورسي رحمه الله تعالى يعبر عن الإنسان بأنه فهرستة لكتاب العالم. وذلك جسر العمران لعالم الأكوان.

زمننا هذا قد ضعف فيه عمراننا إن لم نقل قد زال فإسهام المسلمين اليوم في عمران الأرض ضعيف جدا، وحاجة البشرية جملة إلى من يعمر الأرض بالغة الأهمية. لذلك كان إلحاح النورسي رحمه الله على تفعيل وتحفيز وتذويق الحقائق القرآنية للإنسان حتى ينطلق من القرآن إلى العمران، والحاجة ملحة أشد الإلحاح إلى تفعيل الإيمان لفهم علوم الأكوان وبناء الإنسان لا إلى كثرة تشييد البنيان، فبناء الساجد قبل بناء المساجد.

قائمة المصادر والمراجع:

- القرآن الكريم.
- ابن خلدون ، مقدمة ابن خلدون، دار القلم بيروت.
- ابن منظور، لسان العرب، دار صادر بيروت.
- الأنصاري فريد

• مفاتح النور، نحو معجم شامل للمصطلحات المفتاحية لكليات رسائل النور لبديع الزمان النورسي.. بمشاركة كل من مركز دراسات رسائل النور باستانبول ومعهد الدراسات المصطلحية.٢٠٠٤م.

• الكونية الأخلاقية بين علوم القران وعلوم الإنسان، دراسة في نظرية الأخلاق عند الأستاذ النورسي.

- البوشيخي الشاهد ،

• القرآن الكريم طبيعته ووظيفته، منشورات المحجة ٢٠٠١

• القرآن الكريم روح الأمة الإسلامية، منشورات المحجة ٢٠٠١.

- التهانوي، كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم مكتبة لبنان ناشرون ط:١ ١٩٩٦

- الجرجاني الشريف، كتاب التعريفات ، مكتبة لبنان ط : ١٩٩٠.

- الصالحي إحسان قاسم، بديع الزمان سعيد النورسي : نظرة عامة عن حياته وأثره، ، مطبعة النجاح الجديدة ، الدار البيضاء، ط: ١٩٩٩م .

– طه عبد الرحمان، مقال، بعنوان: كيف نفكر في الصلة بين العلم والدين؟، بمجلة حراء، العدد ٨ يوليو شتنبر ٢٠٠٧.

ـ عادل محمود بدر، نظرة سعيد النورسي إلى عصر النهضة وعلم الكلام..

ـ العزاوي أبوبكر: المنظومة الأخلاقية عند النورسي، شركة سوزلر للنشر، إستانبول ٢٠٠١

ـ النورسي، بديع الزمان، كليات رسائل النور:. ترجمة: الأستاذ إحسان قاسم الصالحي، دار سوزلر للنشر، إستانبول ط:١ سنة ١٩٩٢:

- الكلمات
- المكتوبات
- اللمعات
- الشعاعات
- إشارات الإعجاز في مظان الإيجاز
- المثنوي العربي النوري
- الملاحق في فقه دعوة النور
- صيقل الإسلام، آثار سعيد القديم،
- سيرة ذاتية